تأملات في

أدب الأمام علي بن أبي طالب وخطبه

بقلم
خليل شرف الدين

عباقرة الامم الذين يصنعون تاريخها هم عظماؤها وانبياؤها الرساليون لا مشاهيرها .. هؤلاء الذين يسيطرون على مقدراتها في ظروف مواتية وفي غفلة من الزمن .. وقد تسجل ذاكرة التاريخ ادوارهم المصيرية التي لعبوها على مسرح السياسة او في حومات الوغى . ولكن هؤلاء لا يخلدون في ذراري الامة خلود اولئك العظماء .. ولا يمكن ان ينقلبوا في افئدة الاجيال ايمانا وعلى شفاههم حداء وامام اعينهم مثالا ولعقولهم غذاء ..

فالاسكندر لم يخلد كفاتح شهير بل كعبقري حكيم وتلميذ فيلسوف عظيم ، ونابليون لم يتغن به الفرنسيون لانه قاهر الامم وغازي الارض بل يتغنون به — والنخبة منهم على الاخص — لانه عظيم من عظماء التشريع واديب ومفكر في ثوب قائد .. ولعل شهرته كقائد قد اساءت الى عظمته كمتشرع وعالم .. وهذه هي ضريبة العظمة في العظيم حين يجمع في شخصه اكثر من موهبة والى اعماله اكثر من اثر .. وهذا هو خطأ التاريخ حين يركز على الشهير في العظيم لا على العظيم في الشهير ..

وابن ابي طالب من هذا النوع من عباقرة التاريخ الذين اسيء اليهم عن قصد او غير قصد حين اكثروا من الحديث عن حروبهم وسياساتهم وظواهر تصرفاتهم .. ولم ينظروا اليهم كمصلحين كبار وخطباء هادفين ومفكرين عظماء .. وابن ابي طالب على براعته وصواب رأيه في كل هذه المجالات ابرع واصوب واخلد في مجال الفكر والايمان ، والتعبير المثير عن معطياتهما في الخطبة او المثل او جوامع الكلم (وهو ما نسميه اليوم بقوننة الفكر ..) .

وعظمة علي لا تكمن في كونه خطيبا بليغا وحسب بل في كونه اكثر من خطيب واكثر من بليغ .

وهؤلاء خطباء الاسلام بعد النبي كسحبان وائل وزياد والحجاج وغيرهم .. كانوا خطباء مفوهين واسياد منابر مشهورين وبلغاء معدودين .. ولكنهم لم يكونوا اكثر من ذلك .. ومن هنا يختلفون في ميزان العظمة مع الامام علي فهو الى جانب تفوقه كخطيب بليغ وخير من اعتلى منبرا بعد محمد ، يمتاز بانه رجل فكر وتأمل وروحانية وايمان صميمي ينبع من ثنايا العقيدة الاسلامية الذي ينهمر في كيانه انهمارا بهيا صافيا وفي بيانه القا روحيا راقيا ..

ثم هو رجل ادب .. وبهذا ايضا يختلف عن كثير من عظماء التاريخ ومصلحي الامم الذين لم يكونوا ادباء او متذوقي ادب الا نفرا منهم ..

يقول جورج جرداق في كتابه الموسوم « علي وسقراط » :

« فنظرة واحدة الى الانبياء مثلا تكفي لتقرير هذه الظاهرة (ظاهرة وجود الحس الادبي عند العظماء) في الاذهان . فما داود وسليمان واشعيا وارميا وايوب والمسيح ومحمد الا ادباء اوتوا من الموهبة الادبية ما اوتوا من سائر المواهب . وهذا نابليون القائد وادوار هريو السياسي ولينين المشترع والزعيم ، وافلاطون الفيلسوف القائد وباسكال الرياضي وجواهر نهرو رجل الدولة والفكر وباستور العالم الطبيعي وجمال الدين الافغاني المصلح الاجتماعي انهم جميعا ادباء لهم في الادب ما يجعلهم في مصاف ذوي الشأن من اهله » .. الى ان يقول : « هذه الحقيقة تتركز جلية واضحة في شخصية علي بن ابي طالب فاذا هو الامام في الادب وسره البلاغة، كما هو الامام في ما اثبت من حقوق وفي ما علم وهدى .. » الخ .

ولا عجب فالامام ربيب بيت النبوة ومهبط الوحي والتنزيل واقرب الحواريين الى الرسول الاعظم واول المؤمنين به منهم.. فلا بد ان يمسح فكره بقبس من فكر النبي ، وان يتأدب بأدب النبي ، وان تصبح خطبه فلذات من كبد الحقيقة ، وآيات من وحي الحديث والسيرة ، وقطعا من سر القرآن وسحره ..

وهنا لا عجب ان قلنا انه خطيب لا كالخطباء واديب لا كالادباء سيرة وثقافة والتزاما وروعة كلم .. الامر الذي يجعلنا نرى فرقا شاسعا وبونا بعيدا بينه وبين من سبقه وعاصره وجاء بعده من خطباء ما عدا النبي الذي تتلمذ الامام علي على يديه .

فهذه خطب الجاهلية يأخذ الامام منها شاعريتها وخيالها وصورها وفطرتها السليمة ثم يضيف اليها البيان الاسلامي المهذب والمنطق القوى والموضوعية الهادفة .

وهذه هي الخطبة الاسلامية مبتسرة تكاد تكون ديوانية رسمية او جمعية روتينية عند الخلفاء الثلاثة ابي بكر وعمر وعثمان على ما فيها من الايمان والحرارة والقوة .. ثم هي عند خطباء الوفود والمحافل تزلفية مهادنة متقطعة الانفاس رغم بلاغتها الاسلوبية كما عند قيس بن عاصم وسحبان وائل .. وهي عند زياد والحجاج غير ملتزمة وجدانيا وان التزمت حزبيا .. لذا فهي متكلفة الموضوع ان لم تكن مستأجرة الاسلوب والغاية .. بمعنى ان خطيبي عبد الملك هذين ليسا — في نظرنا — اديبين او مصلحين او خطيبين عفويين.. انهما مكلفان مضطران الى ان يقفا الموقف الارهابي الذي وقفاه .. فاذا كانا قد ابدعا في تبليغ الرسالة الاموية الى عرين المعارضة .. الكوفة ثم البصرة .. واذا كانا قد ادهشا الناس بل روعاهم ببلاغة القول فانهما يبقيان في الدرجة الدنيا من حيث الالتزام والاخلاقية .. اذ ليس لهما ذكاء الامام ولا مكانته ولا نشأته ولا ايمانه ولا تدفقه في التعبير النبوي المثير كما ان ليس لهما انسانية الامام واحترامه للنفس البشرية .. واراني متجنيا على قدسية الامام وبلاغته وتساميه اذا امعنت في مثل هذه المقارنة . فالامام باجماع الباحثين رائد البلغاء في عصره حتى وبعد عصره ..وكل من عاصره كان عيالا على نبعتين قريشيتين ثرتين .. النبعة المحمدية والنبعة العلوية .. ولا ننسى ان زيادا كان تلميذ الامام وواليا من قبله على البصرة قبل قضية الاعتراف المشهورة . اضف الى النشأة والسيرة والبيئة ونوع الثقافة الخصائص العلوية الذاتية التي تكاد تقف وحدها في مجال الاخلاق والذوق والذكاء والعمق والشمولية وقوة التأمل والسبر .. تقف لتؤلف شخصية عجيبة خصبة معطاء .. شخصية تلتحم فيها مزايا الفارس والبطل الى مزايا المصلح والاديب والخطيب الرباني الملتزم في هندسة نفسية وذهنية وفنية رائعة ..

من هنا كانت عالمية ابن ابي طالب وتخطيه حدود الزمان والمكان بحيث اصبح موضوعا خصبا للباحثين العالميين غربيين وشرقيين ومستشرقين .. لما في تلك الشخصية الفريدة من مزايا خارقة ومواهب لا حصر لها .

فليس يكفي الخطيب ان يكون مؤثرا في النفوس بل موجها ومحترما لهذه النفوس .. ليس يكفي — كما في الخطبة السياسية والعسكرية — ان تنخلع القلوب خوفا وفرقا او تنخدع النفوس وتهيم في ضلالات الخطيب بل عليه ان كان خطيبا حقاوصدقا ان يعطي من نفسه وسيرته النموذج وان يهدي الناس بسحر افعاله قبل سحر اقواله .. وها نحن — اخيرا — نسجل للامام خلاصة ما تميز به من خصائص ادبية وخطابية مكتفين بالبارز منها ..

أ — التدفق التعبيري المنساب ، المتصاعد تمتمات علوية وصلوات حيدرية هامسة .

ب — التسلسل المنطقي والموضوعية المنهجية المتماسكة، فاذا كل جملة لا يستقيم البحث بدونها ، واذا الموضوع برمته بنيان مرصوص او فلذة من الفلذات الكيانية النابضة بالحياة ..

جـ — الفخامة في اللفظ والانديا ح في الخيال . خطبه الوصفية (الطاووس والنملة والجرادة والخفاش) .. وشي من الوشي وتهاويل والوان واصباغ ..

د — التأمل النبوي والافتراض الحدسي الصافي حتى لكأن المستقبل رهن يديه .. او هو يرى ما لا يرى، بعين البديهة الصافية ومرآة الذهن البلورية وزخم الالق الروحي المخزون في اعمق قرارات نفسه ..

هـ — وعقل الامام خزان افكار .. فاذا تكلم انثالت المعاني في حشد هائل ولكن على غير تراكم او اكتظاظ .. فهو يمضي متدفق التفكير والتعبير في اطار هندسي واضح الزوايا والخطوط .. وسواء

ارتجل الامام او كتب فهو هو : شلال افكار وينبوع صور ..

و ـ اما في وصاياه ورسائله فهو غيره في خطبه ونجاواه من حيث الايجاز وضغط الموضوع في كلم موهوب موجز معجز في ايجازه .. ولعل ذلك قبس من الاسلوب المحمدي الذي كان يميل ـ في التبليغ ـ الى الاجتزاء والتركيز القرآنيين (كما في السور الملكية خاصة) .

ز ـ والخطبة العلوية ، قبل كل شيء تأتي دائما عفو الخاطر لا تتهيب المناسبة ، مهما حملت من عنصر المفاجأة .. فان حملت عنصر الفاجعة حمل الامام وسائل العقل والمنطق في مجابهتها مجابهة ربانية رحمانية مستسلمة استسلاما ايمانيا لمشيئة مدبر الكون .. وان لم تحمل عنصر المفاجأة ، فاجأ الامام الناس بالموضوعية الهادفة والعقل القادر .

ح ـ ومن شمول الالمعية العلوية انها لا تقتصر على الوعظ والارشاد والتوجيه بل تروح في لهجة الواثق ولهفة العطف الابوي الانساني الغزير **تدستر** مناهج الاصلاح **وتقونن** الاخلاق والمعاملات .. ثم لا يفوتها ان تصف طبائع الانسان والحيوان ومظاهر الكون والوجود ونشأة العوالم ..

فمن الرعد والبرق والارض والسماء ، الى الخفاش والنملة والجرادة والطاووس .. كل ذلك في فلسفة اشراقية اسلامية واعية لينتهي الى ابراز روائع الخالق في ما خلق وعظيم قدرته في ما ابدع .. مما يندر وجوده في الادب العربي وبهذا الاطار الفني المدهش .. واذا كان الجاحظ والمسعودي والقزويني والتوحيدي وامثالهم قد وصفوا الانسان والحيوان والعوالم فانهم كانوا ـ ولا شك ـ غيضا من فيض الامام وباساليب علمية جافة وعواطف باردة باستثناء ابي عثمان ..

ط ـ اما الخيال والعاطفة وهما عنصران فنيان هامان في الخطبة الموفقة فللامام منهما نصيب كبير يكاد يكون نادرا عند غيره .. فالابراج السديمية التي يتناول منها صوره وظلالها لا تنضب ولا تخون .. والغريب انها لا تناقض الواقع الموصوف بل تبلوره وتسمو به . ثم يعكس كل ذلك على نفس موارة بالرؤى ، وقلب زاخر بالهتاف وعقل بعيد التأمل والتطلع ، خاصة حين تكون الخطبة في تصوير الوجود والعدم في وقفة وجدانية نافذة امام الموت وهول المصير ووحشة القبر ..

فانا لا ارى ابعث على القلق ولا ادعى للاسى والشجن والكآبة من هذا القول للامام يصف سكان القبور « جيران لا يتآنسون واحباء لا يتزاورون .. اي الجديدين ظعنوا فيه كان عليهم سرمدا .. بليت بينهم عرى التعارف وانقطعت منهم اسباب الاخاء .. فكلهم وحيد .. وهم جميع ، وبجانب الهجر .. وهم اخلاء .. »

انها وقفة ذاهلة كئيبة لا تدانيها سوى وقفة ابي العلاء امام القبر وتزاحم الاضداد فيه .. وقفة كان لا ينقصها ـ في خضم التجربة ـ سوى دم علي يسفحه سيف خارجي جبان .. ثم يثوي الشهيد بين احبائه هؤلاء ظاعنا مثلهم في سرمدية الجديدين .. وهكذا يفعل ابنه الحسين .. فتنطلق حنجرة حكيم المعرة بهذا الهتاف الحزين ..

وعلى الافق من دماء الشهيدين
علي ونجله شاهدان
فهما في اواخر الليل فجران
وفي اولياته شفقان

ي ـ وما الاصالة الفنية العميقة التي يتميز بها كبار الادباء ، وما احساسهم العميق بوحدة الوجود وشوقهم المتيم الى اكتناه الروابط الخفية الكامنة وراء مظاهر الحياة والموت .. وما نزعتهم الايمانية التوحيدية الجامحة : نزعة الفنان الكبير الذي يريد ان يعمق الوجود في قلبه وعقله وكل كيانه .. ما هذا كله سوى غاية من غايات ابن ابي طالب وصفة من صفاته ، وسمة من سمات فكره الحكيم وادبه الخالد .. ولا تنس انه بهذا يتقدم الخالدين من الادباء العالميين ويتوسط صفوة الحكماء والفلاسفة .. يتقدمهم توثبا نحو معانقة الجمال الالهي والعظمة الكونية والرحمانية الانسانية .. في هتاف دائم ونجوى مستمرة وفكر زاخر بالقيم وخيال موار بالرؤى ..

وتسألني ـ بعد ـ هل كان ابن ابي طالب اكثر من خطيب ام مجرد خطيب ؟ فيجيبك عني ـ ان لم اكن قد اجبتك حتى الان ـ جورج جرداق نفسه حيث يقول : .. « والخطباء في العرب كثيرون والخطابة من فنونهم الادبية التي عرفوها في الجاهلية والاسلام ولا سيما في عصر النبي والخلفاء الراشدين .. اما خطيب العهد النبوي فالرسول لا خلاف في ذلك ، وفي العهد الراشدي وفي ما تلاه من العصور العربية قاطبة فان احدا لم يبلغ ما بلغ اليه علي بن ابي طالب في هذا المجال .. فالنطق السهل لدى علي كان من عنصر شخصيته .. وكذلك البيان القوي بما فيه من عناصر الطبع والصناعة جميعا . ثم ان الله يسر له العدة الكاملة لما تقتضيه الخطابة من مقومات .. فقد ميزه الله بالفطرة السليمة والذوق الرفيع والبلاغة الاسرة ثم بذخيرة من العلم انفرد بها عن اقرانه وبحجة قائمة وقوة اقناع دامغة .. وعبقرية في الارتجال نادرة اضف الى ذلك كله صدقه الذي لا حدود له وهو ضرورة لكل خطبة ناجحة ، وتجاربه الكثيرة المرة التي

كشفت لعقله الجبار عن طبائع الناس وصفات المجتمع ومحركاته ، ثم تلك العقيدة الصلبة التي تصعب مداراتها وذلك الالم العميق المزوج بالحنان العميق ، وبطهارة القلب وسلامة الوجدان وشرف الغاية ، وانه لمن الصعب ان تجد في شخصيات التاريخ من اجتمعت لديه كل هذه الشروط التي تجعل من صاحبها خطيبا فذا غير علي بن ابي طالب ونفر من الخلق قليل .. » كما يجيبك جامع « النهج » الشريف الرضي حيث يقول : « كان امير المؤمنين عليه السلام مشرع الفصاحة ومورِدها ومنشأ البلاغة ومورِدها ، منه ظهر مكنونها ومنه اخذت قوانينها ، وعلى مثله حذا كل قائل خطيب وبكلامه استعان كل واعظ بليغ ومع ذلك فقد سبق وقصروا وتقدم وتأخروا » .. ويقول شارح « النهج » المصلح الكبير الشيخ محمد عبده .. « واحيانا كنت اشهد عقلا نورانيا لا يشبه خلقا جسدانيا فصل عن الموكب الالهي واتصل بالروح الانساني فخلعه عن غاشيات الطبيعة وسما به الى الملكوت الاعلى ونما به الى مشهد النور الاجلى .. » الى ان يقول مهيبا بالناشئة الى تعلمه وتدبره وحفظه .. « ليس في اهل هذه اللغة الا قائل بان كلام علي بن ابي طالب هو اشرف الكلام وابلغه ، بعد كلام الله تعالى وكلام نبيه (ص) واغزره مادة وارفعه اسلوبا واجمعه لجلائل المعاني .. »

وهذا هو العقاد يفرد للامام كتابا براسه في جملة « عبقرياته » . وقد جاء في المقدمة قوله .. « وللذوق الادبي — او الذوق الفني — ملتقى بسيرته كملتقى الفكر والخيال والعاطفة لانه رضوان الله عليه كان اديبا بليغا ، له نهج من الادب والبلاغة يقتدي به المقتدون ، وقسط من الذوق مطبوع يحمده المتذوقون وان تطاولت بينه وبينهم السنون . فهو الحكيم الاديب والخطيب المبين ، والمنشيء الذي يتصل انشاؤه بالعربية ما اتصلت آيات الناشرين والناظمين » .. (١) .

صور (لبنان) — خليل شرف الدين

(١) اقوال موجزة فيه :

قال جبران : « مات الامام علي شان جميع الانبياء الباصرين الذين ياتون الى بلد ليس ببلدهم والى قوم ليس بقومهم ، في زمن ليس بزمنهم .. مات علي بن ابي طالب شهيد عظمته .. مات والصلاة بين شفتيه .. مات وفي قلبه شوق الى ربه .. مات قبل ان يبلغ العالم رسالته كاملة وافية غير انني اتصوره مبتسما قبل ان يغمض عينيه عن هذه الارض .. »

وقال نعيمة : « ان عليا لمن عمالقة الفكر والروح والبيان في كل زمان ومكان .. »

وقال المستشرق كارليل : « اما علي فلا يسعنا الا ان نحبه ونتعشقه فانه فتى شريف القدر عالي النفس يفيض وجدانه رحمة وبرا ويتلظى فؤاده نجدة وحماسة ..» الخ ..

وقال كراده فو في كتابه « مفكرو الاسلام » اشياء كثيرة في صفة الامام البطل والمفكر والاديب والخطيب ، فلتطلب في مظانها .. وكذلك فعل كازانوفا حين دافع عن الامام علي امام هجمات الاب لامنس اليسوعي المتعصب والمؤرخ الموتور ..

وقال المتنبي :

وتركت مدحي للوصي تعمدا
اذ كان نورا مستطيلا شاملا
واذا استطال الشيء قام بنفسه
وصفات ضوء الشمس تذهب باطلا

قريبا..
في المكتبات
صلوات في معبد الحجر
للشاعر: خالد سعود الزيد